



السوريون في الشمال وزلزال "كهрман مرعش"

مقالة رأي
2023 / 2 / 9

أ. مصطفى المصطفى
باحث في مركز نما للأبحاث المعاصرة



NMA
for
Contemporary
Research



NMA

for
Contemporary
Research

«مركز نما للأبحاث المعاصرة»

مؤسسة بحثية مستقلة غير ربحية تُعنى بتقديم الدراسات والأبحاث السياسية والاقتصادية والاجتماعية حول القضية السورية، لإسناد صناع القرار والمجتمع بالمعلومات والتحليلات العلمية المساهمة في اتخاذ القرارات العقلانية، وزيادة الوعي وتحقيق التنمية السياسية للوصول إلى تمكين المجتمع.

تأسس المركز في أيلول 2019 في الشمال السورية كمؤسسة ريادية في تقديم الدراسات والأبحاث المعمقة لصناعة سياسات أكثر فاعلية من خلال استجلاب المعلومة الصحيحة وإخضاعها لعملية تحليلية علمية للوصول إلى النتائج المنطقية التي يمكن الاستناد إليها في عملية صناعة القرار الرشيد.

جميع الحقوق محفوظة © مركز نما للأبحاث المعاصرة - 2023

www.nmaresearch.com

لا تمتلك الصفائح التكتونية التي تتناطح في أعماق الأرض حساً أو عقلاً لتوجه طاقتها المزلزلة لأماكن خالية من البشر، أو لأماكن استطاع الإنسان فيها أن يشيد أبنية قادرة على تحمل الهزات. إنه اعتبار الطبيعة الذي لا يعرف رحمة ولا شفقة فيضرب خبط عشواء.

عند الساعة الرابعة من صباح يوم الاثنين السادس من شباط 2023 سطر التاريخ في صفحاته المظلمة أن زلزالاً عنيفاً مصدره الجنوب التركي امتد بآثاره المدمرة إلى الشمال السوري ليحصد أرواح مئات السوريين ويدمر ممتلكاتهم وينشر الهلع والذعر في نفوس الناجين ملقياً بهم في زحمة الهول إلى الطرقات والساحات حيث كان البرد القارس بانتظارهم في درجات حرارة تلامس الصفر، مخلفاً كارثة إنسانية بأقصى ما تعنيه كلمة كارثة من معنى، فما أن استقرت الأرض تحت أرجلهم حتى هرع السوريون إلى هواتفهم يتنقلون بين صفحات الأخبار ورسائل الاطمئنان على ذويهم ومعارفهم في المناطق المجاورة، وما أن تبين أن مركز الزلزال هو المناطق الجنوبية من تركيا حتى ازداد القلق والخوف، فمعظم العوائل في الشمال السوري لديها أبناء وأقارب وأصدقاء يقيمون بكثافة في المدن التركية الجنوبية، فتوزعت مشاعر الذعر والقلق بين من في الداخل ومن على الضفة الأخرى من الحدود؛ كل يريد أن يطمئن عن الآخر. إنه عنصر المفاجأة والغدر الذي يصاحب الزلازل؛ فلا أحد يستطيع تذكر تفاصيل ما حدث من هول الحدث، لكن أحدهم لخصه بجملة معبرة: كأنه يوم القيامة.

إلى أن حل الصباح كانت صرخات الاستغاثة تنبئ بحجم الفاجعة، فلم تبق منطقة أو قرية إلا وأصابها الضرر، وتناقلت وسائل الإعلام صرخات المكلومين وأنين العالقين تحت الركام ومشاهد تنفطر لها الأفئدة، ومع الهزات الارتدادية التي لم تتوقف؛ أصبح الناس هيام على وجوههم، فانشغل البعض بتأمين المأوى لعائلته بعد أن أصبحت البيوت مصدر رعب لسكانها، فبات البعض في العراء، وبعضهم بات في سيرته، والبعض الآخر حل ضيفاً عند أقاربه من أهل الخيام، وانبرى آخرون لمساعدة رجال الدفاع المدني ذوي الإمكانيات المحدودة في نجدة المستغيثين، وضاقَت الدنيا بمن علم أن أحد أقاربه أو أصدقائه قد دمر الزلزال منزله، فالأنفاس محبوسة والقلوب ترتجف والألسنة لا تكف عن الدعاء. تمر الساعات سريعة، ومع كل ساعة هناك تحديث جديد لأعداد الضحايا والمصابين، وهناك نغوات ونغوات جديدة، قبور ودفن، وتعزية، وهناك ألم يعتصر، إنه غدر الطبيعة وقد خلف كارثة.

تعرف هيئة الأمم المتحدة الكارثة على أنها "حالة مفاجئة يتأثر من جرائها نمط الحياة اليومية فجأة ويصبح الناس يعانون من ويلاتها ويصيرون في حاجة إلى حماية، وملابس، وملجأ، وعناية طبية واجتماعية واحتياجات الحياة الضرورية الأخرى". يضيء التعريف على جانب مظلم آخر من المأساة جعل معاناة الناس في هذه المناطق أشد قسوة، فتلك الاحتياجات الإنسانية تفترض استنفار المجتمع الدولي لتقديم المساعدات الفنية واللوجستية لسكان هذه المناطق لمواجهة ما حل بهم من كرب، خاصة وأن هذه المناطق تؤوي الملايين من الفارين من بطش النظام السوري الذي نكل بهم، وهم يفتقدون لأدنى مقومات الدولة من بنية تحتية ومؤسسات حكومية فاعلة. والأهم، أنهم يفتقدون الآليات الثقيلة والمعدات اللازمة لمواجهة هكذا نوع من الكوارث. لقد أعادت الكارثة إلى الواجهة من جديد مشاعر اليتيم والخذلان التي لطالما عانى منها السوريون.

في محاولة للتصدي لمهمة تعجز أمامها الدول؛ شباب ورجال بارك الله بهمتهم وصلوا الليل بالنهار في محاولات حثيثة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، تجمهروا بأعداد غفيرة حول جبال من الركام ليتبين لهم أن الوسائل البدائية التي بحوزتهم ليست كافية لإنجاز المهمة؛ في موقف يدعو إلى اليأس والشعور بالعجز لم ييأسوا؛ فاستصرخوا أقرانهم واستنجدوا بمعدات لقص الحديد وأدوات لثقب الاسمنت وأنقذوا من أنقذوا، وانتشلوا من تحت الركام بعض الجثامين ومازال البعض الآخر ينتظر، وإلى أن تصل المعدات اللازمة لإزالة الأنقاض التي يصعب إزالتها من دون الاستعانة بالآليات الثقيلة؛ ستبقى المخاطر مستمرة مع تخوف من كارثة أخرى بيئية أو صحية. فرغم أن أصحاب النخوة لم يبخلوا بمال أو جهد، إلا أن حجم الكارثة يحتاج لموارد أكبر .

لم تنته القصة بعد، لكنها أنهت أقسى فصولها، سيسجل التاريخ في صفحاته السوداء أن السوريين قتلوا مرتين، مرة على يد نظام مجرم، ومرة على يد زلزال أحال بيوتهم إلى مقبرة، وفي المرتين ما وجدوا لحالهم من بواكيا .